مجلة دراسات إسلامية رقم ISSN 1112-8011
المجلد : 16 العدد : 01 السنة : 2021 ص 111 – 124

دور العلائق في تشييد المعنى في القصة النبوية

– قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس" أنموذجا –

The role of relationships in building meaning in the prophetic story:

- The story of the man who killed a hundred souls as a model -

رشيد بريشو*

كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل،القنيطرة، المغرب berrichou1988@gmail.com

تاريخ الارسال : 2021/05/05	تاريخ القبول : 2021/05/20	تاريخ النشر : 2021/06/20

ملخص:

تعددت الدراسات والأبحاث التي تناولت القصص النبوي، لكن قلما نجد من هاته الدراسات ما يلامس الجانب الأدبي والبلاغي فيها، فهي حبلى بالمعاني والدلالات التي تجعل منها أحسن القصص بعد قصص القرآن الكريم.

إن هذا التميز والغنى الذي يطبع القصص النبوي، هو ما دفعنا إلى الانكباب على دراسته، وتعميق البحث فيه، ولعل في دراسته تجلية للكثير من الخصائص الفنية التي بإمكانها أن تثري الدراسات الحديثة. ولأن تحليل واستنطاق هذا الموروث السردي يمكننا من الوصول إلى الكثير من الدلالات من داخل النصوص ذاتها، دون الاعتماد على ما هو خارجها إلا فيما ندر. ومن هذا المنطلق حاولنا أن نقارب القصص النبوي من الناحية السيميائية باستخراج المعاني والدلالات التي تنشأ عن العلائق بين الشخصيات.

الكلمات المفتاحية: القصة النبوية، العامل، العلائق، المعنى.

Abstract:

The Prophet Stories is characterized by literary richness; and there is a researchers group interested in studying it; but it is external study not an internal study.

This article trys to give a study about stories of the Prophet Mohamed from the semiotic side; and by extracting the

* المؤلف المرسل

meanings and connotations that arose out of relationships between characters.

Key words: **Prophet stories; Actant ; relations; the meaning**.

مقدمة:

يعد القصص النبوي من بين النصوص التي لم تحظ بما يكفي من الدراسة والتحليل (أقصد الدراسة الفنية)، رغم أنه ينطبق عليه في الواقعية والأسلوب والمكانة والتميز ما ينطبق على القصص القرآني، لأن الله تعالى هو الذي أوحى لنبينا الكريم، كونه ﷺ "عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوىٰ"(سورة النجم، الآية 5). كما أنه من المنابر التي اعتمد عليها الرسول ﷺ، لنشر دعوته، وبيان ما جاء به في رسالته المحمدية، لإيقاظ الشعور والعاطفة، وترسيخ القيم الأخلاقية في المجتمع.

إن هذا التميز والغنى الذي يطبع القصص النبوي، هو ما دفعنا إلى الانكباب على دراسته، وتعميق البحث فيه، ولعل في دراسته تجلية للكثير من الخصائص الفنية التي بإمكانها أن تثري الدراسات الحديثة. "ولأن تحليل واستنطاق هذا الموروث السردي العربي يمكننا من الوصول إلى الكثير من الدلالات من داخل النصوص ذاتها، دون الاعتماد على ماهو خارجها إلا فيما ندر. فالنص يحمل بين أسطره دلالاته، ويقدم المعرفة التي يحتاجها القارئ، وما على الدارس والمحلل إلا أن يبذل الجهد للوصول إلى هذه الدلالات وهذه المعرفة واستخراجها"1.

ومن أجل ذلك، كان لزاما علينا التوسل بمنهج يوفر لنا آليات وأدوات تسعفنا في دراسة وتحليل هذا الموروث النبوي الزاخر، ولقد وجدنا في المنهج السيميائي ضالتنا، باعتباره المنهج الذي يعتمد –في تحليله للنصوص– على النص ذاته، لا على ما يحيط به، سواء تعلق الأمر بحياة كاتبه أو بالوسط الاجتماعي الذي ظهر فيه. ولقد استفاد هذا المنهج من نظريات لسانية، كانت بمثابة الحجر الأساس لبناء أركانه، وتشييد صرحه في كل أقطار العالم.

– مشكلة الدراسة:

اتضح مما سبق أن السرد العربي القديم عموما والقصص النبوي على وجه الخصوص، في أمس الحاجة إلى الدراسة والتحليل، والملاحظ أن أغلب الدراسات التي تناولت قصص النبي ﷺ اتسمت بنوع من الانطباعية، حيث تطفو ذاتية الباحث، من خلال تفسير مشاعره تجاه القصة، أو تقديم انطباعاته حولها، مما يوقع فيما يسمى بخطر التعامل مع النص بما عند المتلقي لا بما في النص. وعليه، فقد أصبحت الحاجة ماسة اليوم إلى دراسة القصص النبوي بمنهج يتيح للباحث أدوات تحليل أكثر نجاعة، مما يفضي إلى نتائج تتسم بالدقة والموضوعية.

في ضوء ذلك تحددت إشكالية الدراسة في محاولة الإجابة على السؤال الرئيس التالي:

ماهي المعاني والدلالات التي تنشأ عند مقاربة شخصيات قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس" سيميائيا؟

ويتفرع عن هذا السؤال التساؤلات الفرعية التالية:

- ما المقصود بالقصة النبوية؟
- ما مفهوم الشخصية؟
- ما هي أهم أسس المنهج السيميائي؟ وكيف يشتغل "النموذج العاملي" عند "غريماس"؟
- كيف تمظهرت الشخصية سيميائيا في قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس"؟ وما الدلالات والمعاني المستقاة من العلائق بين شخصياتها؟
-

فرضيات الدراسة:

انطلاقا من التساؤلات السابقة يمكن صياغة فرضيات الدراسة كما يلي:

– المنهج السيميائي يقدم نتائج دقيقة وموضوعة عند تطبيقه على النصوص السردية العربية القديمة.

– المقاربة السيميائية لشخصيات قصة الرجل الذي قتل مائة نفس تُنتج معاني ودلالات، انطلاقا من تجريب "النموذج العاملي" لـ"غريماس".

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في تجريب مناهج حديثة لدراسة نصوص سردية قديمة، كما أنها تسعى إلى إبراز المعاني والدلالات التي تنتجها العلائق بين الشخصيات في قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس"، وذلك بتطبيق آليات البحث التي يوفرها النموذج العاملي عند "غريماس".

تتضمن مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة إن وجدت، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته.

1. مفهوم القصة النبوية

1.1 القصة لغة واصطلاحا:

يعتبر مفهوم القصة في اللغة من المفاهيم المتفلتة، إذ نجد له معان متعددة في قواميس اللغة العربية. فقد جاء عند ابن منضور أن القصة هي:" الخبر وهو القصص. وقص علي خبره يقُصه قصا وقصصا، أورده. والقَصَص: الخبر المقصوص، والقِصص، بكسر القاف، جمع القصة التي تكتب"2.

أما صاحب القاموس المحيط فيرى أن كلمة "قص" تعني: "قَصَّ الأثر قصا: تتبعه، وقص الخبر: أَعْلمَه. والقاص: من يأتي بالقِصة. وتقصص كلامه: حفِظه3، فالقصة هنا بمعنى تتبع الأثر والإتيان بالقصة على وجهها. وأن القص والخبر مترادفان، والقَصص هي الخبر المقصوص (المحكي)، و القاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها.

فإذا ما تأملنا في الدلالات اللغوية للقصة نجد أن كل التعاريف المقدمة لا تكاد تفصل بينها وبين الخبر، ولعل هذا راجع بالأساس إلى طبيعة تلك البيئة المعجمية القديمة المهتمة بشأن المفردات وبيان مرادفاتها على نحو عام، حيث لم تكلف نفسها البحث الدقيق في الفروق الحاصلة بين المفردات.

أما من الناحية الاصطلاحية فتعرف القصة بأنها: "فن أدبي قديم صاحب الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانة – هذا الفن– ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال"4. وقد تعددت أنواعه، فمنه الحقيقي كالرحلات، والخيالي، كقصة كليلة ودمنة، ومنه الأدبي القصير كالمقامات، والحماسي الطويل كقصة عنترة...

ويعرف عمر سليمان القصة بأنها: "فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود"5.

والقصة، في المدلول الشامل للكلمة، "لون من ألوان الأدب القصصي، الذي يروي الأخبار، على أنواعها، ويعرض الأحداث، وينقل المآثر، ويسوق الحكايا والنوادر، وينسج الأساطير والخرافات، طلبا للمتعة والفائدة"6.

2.1 خصائص القصة النبوية:

ويعد القصص النبوي شكلاً من أشكال الحوار الذي استخدمه الرسول ﷺ لنشر دعوته، كما أنه

"أحسن القصص من كلام البشر، يشترك مع القصص القرآني في كثير من السمات"7 منها: أنه حق لا باطل فيه، وأنه يتسم بالإيجاز بلا خللٍ، ويتميز بوضوح الهدف، كما أنه يتخذ أشكالا متعددة، فمنه المثل القصصي، وقصص الصالحين من الأمم السابقة، وقصص من الواقع المعيش...

2. مفهوم الشخصية:

جاء في لسان العرب في مادة (شخص) أن شخص تعني: "جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر، والجمع: أشخاص وشخوص وشخاص، والشخص سواد الإنسان وغيره تراه بعيد"8 .

ويمثل مفهوم الشخصية عنصرا محوريا في كل سرد، بحيث لا يمكن تصور قصة بدون شخصيات، ومن ثم كان التشخيص هو محور التجربة القصصية. وتعد عملية بناء الشخصية في القصة أخطر عملية في بناء القصة جميعها، لأنها مرتبطة بتوثيق هيكل القصة ذاته، فالقصة ذاتها موقف إنساني، وتحديد معالم الشخصيات الإنسانية هو جوهر عملية بناء القصة، ولهذا تتخلخل كثير من القصص التي اكتفى كاتبها بإبراز الملامح الخارجية لشخصياتها، لأن الشخصية القصصية إنما تبنى من داخل القصة، من أحداثها ومواقفها، لهذا تصبح الشخصية بدورها عامل بناء وتركيب وإثراء للقصة نفسها.

وتعد الشخصية "المكون الذي يحاول به كاتب الرواية، عن طريق أسلبة اللغة وفقا لشفرة خاصة ونسق مميز، مقاربة ذلك الإنسان الواقعي الذي نشير إليه عادة بكلمة (شخص) للدلالة على الفرد الذي تتضافر عوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية في تكوين جسمه ونفسيته"9.

وعليه، فالشخصية، بهذا، تتخذ عدة أبعاد منها ما يتعلق بالجانب النفسي ومنها ما يتعلق بالجانب الاجتماعي، ومنها ما يتعلق بالجانب البنيوي، "ففي – النظريات السيكولوجية– تتخذ الشخصية جوهرا سيكولوجيا، وتصير فردا، شخصا، أي ببساطة (كائنا إنسانيا). وفي المنظور الاجتماعي تتحول الشخصية إلى نمط اجتماعي يعبر عن واقع طبقي، ويعكس وعيا إيديولوحيا. بخلاف ذلك لا يعامل التحليل البنيوي الشخصية باعتبارها جوهرا سيكولوجيا، ولا نمطا اجتماعيا، وإنما باعتبارها علامة يتشكل مدلولها من وحدة الأفعال التي تنجزها في سياق السرد وليس خارجه. إن التحليل البنيوي وهو يجرد الشخصية من جوهرها السيكولوجي ومرجعها الاجتماعي لا يتعامل مع الشخصية بوصفها (كائنا) أي شخصا، وإنما بوصفها فاعلا ينجز دورا أو وظيفة في الحكاية، أي بحسب ما تعمله، ومن ثمة يستبدل غريماس مفهوم الشخصية بمفهوم العامل"10.

وبالتالي، تبقى الشخصية العنصر الأكثر غموضا من خلال ارتباطها بالمعرفة الإنسانية وتطور الاتجاهات الفكرية الفلسفية والوجدانية والنفسية وغيرها، حيث إن "التحول الاجتماعي إبان الثورة البرجوازية في القرن التاسع عشر، هو الذي أبرز الشخصية الروائية ومنحها وجودها المستقل عن الحدث الذي صار بدوره تابعا لها، ووظيفته إمداد القارئ بمزيد من المعرفة عنها"11.

3. سيميائية الخطاب السردي:

شكل ظهور مصطلح (البنية)، الذي اقترحه رائد البنيوية واللسانيات (فرديناند دي سوسير – F.De Saussure) (1875–1912)، من خلال مؤلفه المشهور (دروس في اللسانيات العامة)، الانطلاقة الفعلية لدراسة النص من الداخل، حيث "اصطبغت

بحوث علم النص بالصبغة العالمية، وراحت تتجه نحو سن قوانين عامة تحكم النص بوجه عام والنص الأدبي بوجه خاص دون الارتباط بلغة معينة، لتجيب عن سؤال في غاية الدقة والتحديد مؤداه، كيف ينتج النص معناه؟"12، وعلى هذا الأساس ظهرت عدة اتجاهات ومدارس تناشد البحث السيميائي، من أبرز هذه المدارس (المدرسة الشكلانية) و(مدرسة باريس) اللتان كان لهما الفضل في تطوير السيميائيات السردية، والحديث عن المدرستين طويل، لكننا سنكتفي، بالإشارة إلى مدرسة باريس، من خلال عرض المجهودات التي بذلها رائدها (غريماس).

إن الإحاطة الشاملة بنظرية غريماس السيميائية، سواء أكان ذلك في أصولها العلمية أم في مفاهيمها الإجرائية وحدود هذه المفاهيم، ليس بالأمر الهين. فطموح هذه النظرية وشساعتها ونزعتها الشمولية، وتشعب مصادرها المعرفية وتداخلها، وتنوع العلوم التي استندت إليها في بناء جهازها المفهومي، وغنى هذا الأخير، تعد من أهم العقبات التي تحول دون الإمساك بروح هذا المشروع، بله رصد كل جزئياته وتفاصيله. بالإضافة إلى هذا، فإن الحديث الجاد عن هذه النظرية –أو عن غيرها من النظريات– لا يعني استعراض مجهودات شخصية علمية معروفة بمساهمتها المعرفية فحسب، بقدر ما هو في العمق، تناول معقد يتجاوز هذه الحدود الضيقة.

إن ما يهم السيميائي غريماس في تعامله مع النصوص هو "الشروط الداخلية للمعنى دون اعتبار لتلك العلاقات التي يقيمها النص مع أي عنصر خارجي"13، مما يستلزم معه أن يظل التحليل – والحالة هذه– محايثا مقتصرا على فحص الاشتغال النصي لعناصر المعنى دون غيرها. وهو ما يعني أن المعنى سيعتبر أثرا ونتيجة مستخلصة بواسطة لعبة العلاقات بين العناصر الدالة، ويدرس غريماس المعنى من زاويتين:

- الزاوية الأولى: المستوى السطحي: بحيث يتم فيها الاعتماد على المدوَّن السردي الذي ينظّم تتابع حالات الشخصيات وتحولاتها، والمكون الخطابي الذي يتحكم في تسلسل الصور وآثار المعنى"14.
- الزاوية الثانية: المستوى العميق: والتي "ترصد شبكة العلاقات التي تنظِّم قيم المعنى حسب العلاقات التي تقيمها، وكذلك تبين نظام العمليات التي تنظم الانتقال من قيمة إلى أخرى"15. حيث تقيم شبكة العلائق ترسيمة للمكون الخطابي مما يسمح بتتبع الشّواكل الحقيقة للمؤشرات النصية.

انطلاقا من هذا التصور، نستنتج أنه لا يتم، في نظر غريماس، "استخراج المعنى إلا بالكشف عن العلاقات القائمة في صلب النص، وحصريا، بربط الوحدات السردية وفق الغايات القصوى المقصود بلوغها"16، على اعتبار أن العلاقات التي تربط جوهر الدلالة بالخطاب الأدبي هي علاقة توليدية، من حيث خضوع المعنى لديمومة النص، أي بنيته المتكاملة المغلقة، وبالتالي الاحتكام إلى عناصره الداخلية فقط – دون الإلتفات إلى العوامل الخارجية– في تحركها وتوزعها ضمن محاور دلالية، بحكم امتلاكها الطاقة الكافية على تغيير الدلالات الأصلية المشحونة فيها"17.

وعليه، يمكننا القول بأن أهم ما تتميز به هذه النظرية، وخاصة في المجال السردي، هو الشمولية والعمق في التحليل، بالإضافة إلى قدرتها على النفاذ إلى باطن النص، واستخراج آليات انتظامه، وتحديد القواعد المتحكمة في تنظيم مستوياته.

1.3 النموذج العاملي عند "غريماس":

يعد النموذج العاملي نسقا إجرائيا يتميز بصفة الثبات، خاضع لجملة من الشروط والضوابط، تسيرها طبيعة العلاقة الكائنة بين العوامل والفواعل ووظائفهما داخل كيان العمل السردي، فضلا عن ذلك هو "أداة لمعالجة النصوص السردية، أي بدلا من الاعتماد على الوظائف في تحليل النصوص السردية التي تعطي أهمية أكثر للعوامل وعلى ما يطرأ على أدوارها من تحولات، وإخضاع النصوص الأدبية إلى ما يسمى بالنسق المفتوح، أي عدم إخضاع النصوص لنسق واحد وإنما لعدة أنساق...18.

ويعرف مُحَمَّد ناصر العجمي النموذج العاملي على أنه: " نظام خاضع لعلاقات قارة بين العوامل ومن حيث هو صيرورة قائمة على تحولات متتالية، ذلك أن السرد ينبني على التراوح بين الاستقرار والحركة والثبات والتحول في الآن ذاته"19. والعامل (**Actant**) حسب (مُحَمَّد مفتاح) هو" اندماج (أنا) في المقال أو لا اندماجه ليحل محله غيره من الضمائر الأخرى"20، كما أن العامل "مفهوم أكثر عمومية وتجريدا من مفهوم الشخصية، فقد يكون العامل شخصية أو حيوانا أو جمادا أو فكرة، إنه يعادل مفهوم الوظيفة"21.

ولقد وجد غريماس أن مفهوم الوظيفة عند بروب لا ينسحب على جميع الوظائف، واقترح بدل ذلك مصطلح (الملفوظ السردي)، وبدل الحديث عن دائرة الفعل يقترح غريماس مصطلح العامل كمفهوم أشمل، لأن العامل يشكل "بؤرة للاستثمار الدلالي، وبدل النظرة التوزيعية يجب التفكير في الكشف عن مستوى آخر لتنظيم السردية، وبدل الحديث عن التتابع الوظيفي يجب الحديث عن الخطاطة السردية"22.

إذا كانت الحكاية عند بروب هي تتابع واحد وثلاثين وظيفة، فإن الوظائف تتقلص عند غريماس إلى عدد محدود من الشخصيات والتي تأخذ معنى مغايرا هي الأخرى بحيث تصبح فواعلا. إذ قلص غريماس تلك الوظائف إلى ستة عوامل تأتلف في ثلاث علاقات أو محاور بحيث تأخذ الترسيمة التالية23:

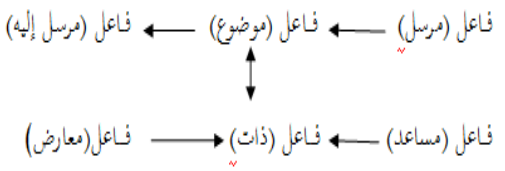

الشكل (1): العوامل عند غريماس.

1.المحور: فاعل (ذات) **actant sujet**/ فاعل (موضوع) **actant objet** يسمى محور الرغبة.

2.المحور: فاعل (مرسل) **actant distinateur**/ فاعل (مرسل إليه) **actant distinataire** يسمى محور الاتصال.

3.المحور: فاعل (مساعد) **actant adjuvant**/ فاعل (معارض) **actant opposant** يسمى محور القدرة.

والعامل عند غريماس قد يكون ذاتا أو موضوعا أو مرسلا أو مرسلا إليه أو مساعدا أو معارضا، لتندمج هذه العوامل الستة في ما يسمى بالبنية العاملية، "والتي يمكن أن تكون علاقة رغبة كالتي تربط بين الفاعل وموضوع الرغبة (objet du desur)، أو علاقة معاكسة كالتي تربطه بالمعارض (opposant) الذي يحول دونه ودون الموضوع، أو علاقة متجانسة تتم على الصعيد المعرفي/ الإقناعي (**cognitif/persuasif**) وتشمل المرسل والفاعل"24. والعلاقات الثلاث هاته تؤدي إلى إنجاز البرنامج السردي.

إن الشخصيات في الحكي لا تتشكل نهائيا منذ الانطلاقة الأولى للأحداث، حيث تخضع للتحولات والتغيرات، لأن "التحولات هي ما يمنح للقصة ديناميكيتها وتلوينها القيمي الخاص"25، والانطلاق من النظام إلى الإجراء يعني توظيف علاقات: الرغبة، التواصل، الصراع والخطاطة السردية تعد "عنصر منظم ومتحكم في التحولات"26، لأنها تشكل أنموذج لكل التحولات، فكل نص سردي ينطلق من نقطة البداية ليصل إلى نقطة النهاية.

ومن المعروف أن السرد يقوم على التحول من حالة لأخرى، لأن علاقة الذات بالموضوع تتراوح بين الاتصال والانفصال، إذن فهو عبارة عن "ربط مركبي لمتوالية من ملفوظين ترابطيين (وصلة وفصلة أو العكس)، لهما نفس الذات ومتصلين بعلاقة اقتضاء بسيطة"27، والانتقال من حالة لأخرى (من اتصال إلى انفصال والعكس) يستلزم اللجوء إلى فعل التحويل، وعملية الانطلاق من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية لا يتم عن طريق الصدفة، بحيث "يجب التعامل مع هذا الانتقال كعنصر مبرمج بشكل سابق داخل خطاطة سردية"28، ويتجسد هذا التحول في ما يسمى الملفوظ السردي الأساسي **L'énonce narratif élémentaire**، والمخطط التالي يمثل ذلك:

1-(فا ∩ مو) (فا ∪ مو).

2-(فا ∪ مو) (فا ∩ مو).

فا = الفاعل، م = الموضوع.

الشكل(2): علاقة الاتصال والانفصال بين الفاعل والموضوع.

ومنه فالملفوظ السردي يتضمن تحولا في علاقة الذات بالموضوع تتراوح بين الاتصال والانفصال والعكس، ويمثل "الانتقال في هذه الحالة مجموعة من اللحظات السردية المرتبطة فيما بينهما وفق منطق خاص"29، وبهذا يتخذ الفعل (الوظيفة) شكل ملفوظ سردي بسيط، لأن كل عملية داخل النحو الأصولي يمكن أن تتحول إلى ملفوظ سردي حسب غريماس.

وتتكون الخطاطة السردية من عناصر هي: التحريك / الأهلية / الإنجاز / الجزاء / هذه العناصر بدورها مرتبطة فيما بينها ارتباطا منطقيا، وتقوم داخل هذه الأطوار علاقات بين الأدوار والعوامل المحققة للحالات والتحولات.

4. التحليل العاملي لشخصيات قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس":

تصنف قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس" ضمن القصص النبوي الذي اهتم بقضية التوبة بعد الاسراف في ارتكاب المعاصي، فالرسول مُحَمَّد (ص) كان بين الفينة والأخرى يَذكر للصحابة مثل هذه القصص، من أجل استخلاص الدروس وأخذ العبر.

يمكن تلخيص أحداث هذه القصة في أن رجلا أسرف على نفسه بقتل تسعة وتسعين نفسا، فخرج باحثا عن منقد له من هذا الوضع، ومن شدة حرصه على التوبة سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل راهب، فأخبره بما كان، فاستعظم الراهب ذنبه وأخبره بأن التوبة محجوبة عنه، فقتل الراهبَ ليتم به المائة. ثم سأل مرة أخرى عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالم، فسأله ما إذا كانت له توبة بعد الذي فعل، فقال له العالم: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ لكن شرط عليه أن يهاجر، تاركا أرض الذنوب، إلى أرض فيها قوم صالحون. وخرج قاصدا تلك الأرض، ولما وصل إلى

منتصف الطريق حضره الموت، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، فتولت أمره ملائكة الرحمة بعد أن وُجِد أقرب إلى أرض التوبة.

ومن أجل تحليل شخصيات هذه القصة لابد من معرفة أن التحليل السردي عند "غريماس" يتخذ من البرنامج السردي جهازا آليا، له مراحل تؤسسه، وهي، كما ذكرنا، أربع: التحريك، الكفاءة (الأهلية)، الأداء (الإنجاز)، والتقويم (الجزاء)، وليس بالضرورة أن تتحقق كل هذه المراحل داخل النص السردي، "لأننا قد نجد بعضها مما يفسر اختزال بعضها الآخر، والعلة تكمن في أن كل مرحلة تستدعي الأخرى منطقيا، فالقول بالأداء يحيل على وجود كفاءة مسبقا وعن التقويم الذي يتقدمه التحريك..."30.

وبالعودة إلى قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس"، موضوع الدراسة، نجد أن عامل الذات "الرجل القاتل" في علاقة فصلية بموضوع واحد يريد إنجازه، وهو: التوبة. ويمكن تمثيل ذلك في الشكل الآتي:

ذ.(الرجل القاتل) ⟵ م. البحث عن التوبة.

الشكل(3): علاقة الذات (الرجل القاتل) بالموضوع (التوبة).

ولكل برنامج سردي بسيط عدة عوامل مكونة له، تسهم في تجسيده في العمل الإبداعي، ومن ثَم إمكانية تحققه في صور محسوسة أو مدركة، وأول محطة في البرنامج السردي هي:

أ. التحريك (**Manipulation**)

يعد التحريك مرحلة أولية في الرسم السردي وهو فعل يمارسه إنسان على أناس ممارسة تلزمه تنفيذ برنامج معطى، أي "أن عملية التحريك هاته تفرض، من حيث أنها تحقيق لغاية ما، صيغة تشير إلى إمكانية التحول"31، والتغيير من وضع معين للذات الفاعلة إلى وضع آخر. ويتمفصل التحريك إلى فعلين أساسيين "حيث يتم إقناع الذات من قبل المرسل بالبحث عن موضوع القيمة، ويقوم الذات بتأويل هذا العمل الإقناعي"32.

وتبرز الخيوط الأولى للقصة بهيمنة الجمل الاقتضائية التي كانت كعنصر محرك لعامل المرسل إليه (الرجل القاتل)، والذي ظهر لنا من بداية القصة، وعامل التحريك هنا تجلى في السؤال عن أعلم أهل الأرض، "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض"33. وهنا تظهر المعالم الأولى للتحريك، السؤال عن أعلم أهل الأرض بعد الاسراف في المعاصي، كانت بمثابة الأحداث التي حركت البرنامج السردي.

وهكذا، أضحت قضية البحث عن الرجل العالم من أجل التوبة هاجسا جعل "الرجل القاتل" مستعدا للوصول إليه، فكانت هذه أول بدايات التحريك، إذ انفتح عامل الذات "الرجل القاتل" على الرغبة الملحة في التوبة.

وعليه، فعامل الذات في حالة انفصال مع عامل الموضوع، والشكل الآتي يبين بوضوح هذه الحالة:

ذ.(الرجل القاتل) ∪ (علاقة انفصال) م. (التوبة).

الشكل(4): حالة انفصال عامل الذات بعامل الموضوع.

ب. الكفاءة (الأهلية) **La Competence**:

وتمثل الطور الثاني في البرنامج السردي والغرض منها إظهار كينونة الفعل، ويعني بها الظروف اللازمة لتحقيق الإنجاز، أي الكفاءة التي تمتلكها الذات الفاعلة لكي تكون لها القابلية لإنجاز الفعل الموكول إليها، ولا يمكن للذات الفاعلة أن تحقق موضوع الرغبة إلا إذا امتلكت الكفاءة اللازمة، "فلكي تحقق الذات إنجازها، عليها أن تمتلك، بشكل سابق، الأهلية الضرورية لذلك. في هذه الحالة يمكن النظر إلى الأهلية باعتبارها الشروط الضرورية السابقة على الفعل المؤدي إلى امتلاك موضوع ما..."34. ولابد للفاعل من مراحل محدد تفضي به إلى اكتساب الكفاءة اللازمة التي تمكنه من البحث عن الموضوع المرغوب فيه، ويمكن إجمالها في الصيغ التالية:

1. وجوب الفعل **Devoir-Faire**
2. إرادة الفعل **Vouloir-Faire**
3. معرفة الفعل **Savoir-Faire**
4. القدرة على الفعل **Pouvoir-Faire**

إن الذات الفاعلة تتمتع بقدرات وتطمح إلى تحقيق غايتها، وتتمثل هذه الكفاءة في امتلاكها للرغبة، وذلك ظاهر في سؤال (الرجل القاتل) عن مكان الرجل العالم. نجد أن الرغبة وحدها لا تكفي في تحقيق الموضوع المرغوب فيه، بل لابد من عوامل مساعدة لفعل ذلك، فكان الرجل العالم عاملا مساعدا لتحقيق الموضوع المنشود(التوبة)، إضافة إلى القدرة الإلهية التي كانت بجانب الرجل العاصي، حيث أمر الله الأرض بالتحرك حتى يقترب من أرض التوبة.

ج. الإنجاز **La performonce**:

تشير مرحلة الإنجاز إلى "نوع من الإشباع النصي الذي يقود الدورة السردية إلى الامتلاء ويقود الخيط السردي إلى الانكباب على نفسه"35. ويطلق عليه ب "فعل الكينونة"، وهو بمثابة الإشارة التي تنبئ ببلوغ المرحلة الأخيرة من القصة.

ويشكل كل من "الإنجاز أو الأداء محور البرنامج السردي، ففي غيابه ينتفي حدوثه، إنه نواته التي تعمل بداخلها العمليات (الأفعال)، فتتحول الأحوال والماهيات إلى غير ما كانت عليه قبلا، ومنه جاءت تسميته بفعل الكينونة"36.

وعليه، فالإنجاز مرتهن بتحقق الفعل، أي وصول الفاعل (الذات) إلى موضوع قيمته، لذلك فمرحلة الإنجاز تعتبر بؤرة البرنامج السردية، حيث يبحث الفاعل عن الموضوع المرغوب فيه، فينتقل من حال إلى حال. إذ يظهر المنظور التلفظي (الاتصالي ⌒) أو (الانفصالي ⌣) تبعا لانتقال الفاعل من حالة (الانفصال ⌣) إلى حالة (الاتصال ⌒) بالموضوع في حالة النجاح أو العكس"37.

ويتبين أن الذات في القصة موضوع الدرس تمكنت من بلوغ الموضوع، وذلك من خلال عدم اليأس بعد سؤال الرجل الراهب، الذي نفى إمكانية التوبة بعد كل تلك المعاصي، والبحث عن رجل عالم، كان بمثابة العامل المساعد أدى إلى تحقيق رغبة الذات.

د. الجزاء **Sanction**:

وهو آخر مرحلة في الخطاطة السردية، "يهدف إلى إبراز كينونة الكينونة، كما يُسمى أيضا (التقويم) لأنه حكم إبستيمي للفعل يقوم به المرسل الحافظ للقيم اتجاه الفاعل"38.

وعليه، "يجب النظر إلى الجزاء باعتباره حكما على الأفعال التي يتم إنجازها من الحالة البدئية إلى الحالة النهائية39. فالجزاء لاغنى عنه في البرنامج السردي، إذ به يقوّم إنجاز الفاعل الإجرائي.

وميز غريماس بين نوعين من الجزاء:40

1. جزاء تداولي **Pragmatique**
2. جزاء معرفي **Cognitive**

فعلى المحور التداولي، يصدر المرسل المقوّم للفعل المنجز حكما معرفيا حول مدى مطابقة أو عدم مطابقة الإنجاز الأخير للعقدة الابتدائية. أما الجزاء المعرفي، فيكون سابقا عن الجزاء التداولي، وهو يحمل على الكينونة، أي متعلق بملفوظات الحالة، حيث يقوم فيه المرسل بدور المقوم لإنجاز المرسل إليه، ليرى مدى مصداقيته في الأخير.

ولقد لاحظنا في قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس" أن الرغبة التي امتلأ بها الرجل القاتل، من أجل الوصول إلى (التوبة)، كانت حافزا للبحث عن الرجل العالم، والسفر وقطع المسافات لتحقيق هذه الرغبة. ويمكن القول بأن الذات "الرجل القاتل" تمكن من بلوغ الهدف (التوبة)، كما ورد في القصة "فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة"[41]. فالملفوظ (فقبضته ملائكة الرحمة) دال على أن الرجل العاصي نال ما يصبو إليه.

ويمكننا أن نحدد البنية العاملية للعوامل السردية المتضافرة في تشكيل البرنامج السردي كالآتي:

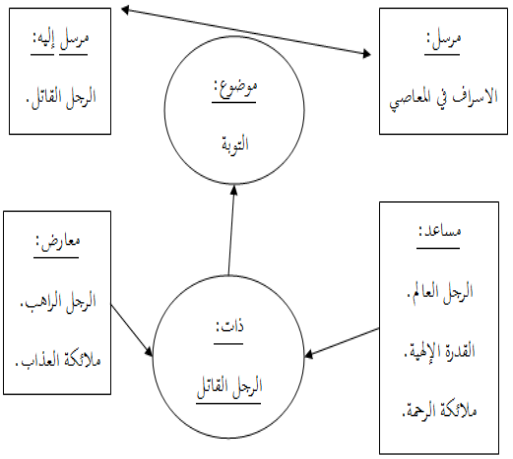

الشكل(5): البنية العاملية للعوامل السردية في قصة "الرجل الذي قتل مئة نفس".

وتتكون هذه الترسيمة العاملية من ثلاث مزدوجات من حيث الطبيعة والدور العاملي الذي تقوم به:

1. مزدوجة: الذات – الموضوع:

يتحدد العامل الذات (الرجل القاتل) في علاقة بالموضوع (التوبة) انطلاقا من علاقة الرغبة، فالرجل القاتل يرغب في الحصول على موضوع قيمة (التوبة).

2. مزدوجة: المرسل _ المرسل إليه:

إن المحرك لعامل الذات هو الاسراف في المعاصي والذنوب، والبحث عن الرجل العالم قصد بلوغ الهدف وهو التوبة من هذه المعاصي.

وعليه فالعامل "الرجل القاتل" يشغل خانتين مختلفتين: الأولى هي التلقي (المرسل إليه)، والثانية تكمن في الذات الموجهة للرغبة.

3. مزدوجة: المساعد – المعارض:

لا يمكن لأي فاعل ذات مهما كانت قدراته الحركية أن يتوصل إلى مجمل أهدافه بغير العامل المساعد، الذي يقع على عاتقه نصرة أهداف الفاعل الذات، وقد يكون العامل المساعد شخوصا أو مواقف. "وهكذا يقوم المساعد بتقديم يد العون للفاعل قصد تحقيق رغبته في موضوع القيمة"42. ومنه فالذات الفاعلة (الرجل القاتل) كانت لها أثناء رحلتها للبحث عن التوبة مساعدان، هما: الرجل العالم، والقدرة الإلهية وملائكة الرحمة.

أما العامل المعارض فهو الذي يقوم على الفصل في حركة الفاعل الذات وحركة موضوعه، ويميل إلى وضع العقبات اللازمة لتأخير عملية الوصول إلى الهدف، وعلى هذا الأساس يمكن أن نجمل العوائق التي حالت بين موسى وموضوعه في:

- عائق الرجل الراهب: حيث استعظم ذنبه، وقنَّطه من رحمة الله، وأخبره أن التوبة محجوبة عنه.

- عائق ملائكة العذاب: يعد عائقا أوشك أن يحول بين الذات والموضوع، إذ قالت: إنه قتل مائة نفس ولم يعمل خيرا أبدا، وبالتالي وجب عليه العذاب.

4. خـــــاتمة:

لقد وفر المنهج السيميائي للباحثين آليات ناجعة لدراسة النصوص السردية، القديمة منها والحديثة، حيث يعتبر النموذج العاملي الذي جاء به غريماس بمثابة أداة فعالة لاستخلاص المعاني والدلالات بشكل مضبوط بعيدا عن الانطباعية والذاتية.

إن محاولة دراسة القصص النبوي بمنهج غربي دخيل شكل تحدّ بالنسبة لنا، لما يكتسيه كلام النبي من قدسية باعتباره ثاني مصادر التشريع بعد كلام الله تعالى، وذلك بالحذر من الوقوع فيما يسمى بـ "لي عنق النص" لكي يناسب مقاس القالب المعد له سلفا، وبالتالي يفقد صبغته وملامحه الأصيلة.

ويمكن أن نجمل أهم النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة فيما يلي:

1. ما يتعلق بمنهجية الدراسة:

- المنهج السيميائي منهج أثبت نجاعته في دراسة النصوص السردية القديمة، وذلك بتوفير آليات التحليل المناسبة والموضوعية.

- الشخصيات في القصة تلعب دورا هاما في بناء الأحداث، كما أن لها دورا في إنتاج المعنى، وذلك من خلال تعقب العلاقات التي تنشأ بين العوامل.

2. مايتعلق بالقصة موضوع الدرس:

إن الدراسة السيميائية لشخصيات قصة "الرجل الذي قتل مائة نفس" أسفرت عن إنتاج المعاني والدلالات التالية:

1. إن هذه القصة تفتح أبواب الأمل لكل عاص، مهما بلغت ذنوبه، كما تبين سعة ورحمة الله تعالى، فرحمته وسعت كل شيء، قال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}43.

2. لابد من صدق النية في طلب التوبة، واتباع الطرق والوسائل المؤدية إليها.

3. على الدعاة ألا ييأسوا من إنسان مهما بلغت ذنوبه وخطاياه، وأن يقدموا البدائل والأعمال التي تمحو المعاصي، وترسخ الإيمان في القلوب.

4. إن من أعظم الأسباب التي تعين العاصي على التوبة هجرة كل ما يذكره بالمعصية، وصحبة أهل الصلاح والخير الذين يذكرونه إذا نسي، وينبهونه إذا غفل.

5. قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.**

1. البخاري، أبي عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الإجارة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ.

2. ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران، المجلد السابع، 1405هـ.

3. الحويني، أبو إسحاق، صحيح القصص النبوي، مكتبة الصحابة، جدة – الشرفية، ط1، 1411هـ.

4. الفيروزآبادي، مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق (مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة) بإشراف مُحَمَّد نعيم العرقسوسي، باب حرف القاف، ط8، 1426هـ-2005م.

5. الأشقر، عمر سليمان عبد الله، صحيح القصص النبوي، عمان، الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط7، 2007م.

6. الأشقر، مُحَمَّد سليمان عبد الله، معجم علوم اللغة العربية، مؤسسة الرسالة، ط1، 1995.

7. بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي القصصي، ترجمة منذر عياشي، سورية، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، ط1، 1993م.

8. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م.

9. بن عبد العظيم بنعزوز، مُحَمَّد، قصة عبد النور بين الاستخفاء والظهور، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1428هـ/2007م.

10. بن مالك، رشيد، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص- عربي- إنجليزي- فرنسي-، دار الحكمة، دط، 2000م.

11. بن مالك، رشيد، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر والتوزيع، دون طبعة، 2002م.

12. بنكراد، سعيد، السيميائيات السردية: مدخل نظري، منشورات الزمن، 2001م.

13. بوشفرة، نادية، معالم سيميائية في مضمون الخطاب السردي، الجزائر، دار الأمل، دط، 2011م.

14. بوعزة، مُحَمَّد، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2010م.

15. توام، عبد الله، إجراءات المقاربة السيميائية للخطاب السردي، مجلة التعليمية، المجلد الرابع، العدد 11، جوان 2017م.

16. التومي، مُحَمَّد، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، ط1407،1هـ/1986م.

17. رشيد، أمينة، السيميوطيقا (مفاهيم وأبعاد)، فصول مجلة النقد الأدبي، مج 1، عدد 3، 1981م.

18. سويرتي، مُحَمَّد، النقد البنيوي والنص الروائي (نماذج تحليلية من النقد العربي)، دار إفريقيا للنشر، ط2، 1994.

19. طالب، أحمد، الفاعل في المنظور السيميائي (دراسة في القصة القصيرة الجزائرية)، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002م.

20. طالب، أحمد، المنهج السيميائي —من النظرية إلى التطبيق- دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005.

21. العابد، عبد المجيد، مباحث في السيميائيات، دار النشر القرويين، 2009م.

22. العجيمي، مُحَمَّد ناصر، في الخطاب السردي، نظرية غريماس، تونس، الدار العربية للكتاب، دط، 1993م.

23. عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 1992.

24. فتحي، ابراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، صفاقص- الجمهورية التونسية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، 1986.

25. فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1992م.

26. الكلاني، نجيب، حوار القصة الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1412هـ/1992م.

27. كورتيس، جوزيف، مدخل إلى السيميائيات السردية والخطابية، تر، جمال حضري، الجزائر، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007م.

28. المرتجي، أنور، سيميائيات النص السردي.، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1987م.

29. مفتاح، مُحَمَّد، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط3، 1992م.

30. هامون، فيليب، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر، سعيد بنكراد، تقديم عبد الفتاح كليطو، الرباط، دار الكلام، 1990م.

31. يعقوب، إميل بديع و عاصي، ميشال، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، مج1، ط1،شتنبر 1987.

32. J .Courtés ; Introduction à la sémiotique narrative et discurcive ; Hachette université ; 1976.

33. Greimas et courtes , Dictionnaire raisonne , 1979.

الهوامش:

[11] مُحَمَّد بن عبد العظيم بنعزوز، قصة عبد النور بين الاستخفاء والظهور، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1428هـ/2007م، ص4.

[2] ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد السابع، حرف الصاد، ص73.

[3] مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق "مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة" بإشراف مُحَمَّد نعيم العرقسوسي، باب حرف القاف، ط: الثامنة 1426هـ-2005م، ص 627-628.

[4] مُحَمَّد سليمان عبد الله الأشقر، معجم علوم اللغة العربية،عن الأئمة، ط1، 1995، ص 320.

[5] عمر سليمان عبد الله الأشقر، صحيح القصص النبوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط7، 2007م، ص12.

[6] إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، مج1، ط1،شتنبر 1987م، ص979.

[7] سعيد بن مصطفى دياب، القصص النبوي دروس وعبر، شبكة الألوكة، 2018م، ص8.

[8] ابن منظور، المجلد السابع، ص45.

[9] مُحَمَّد سويرتي، النقد البنيوي والنص الروائي: نماذج تحليلية من النقد العربي، دار إفريقيا للنشر، ط2، 1994، ص70.

[10] مُحَمَّد بوعزة، تحليل النص السردي: تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2010، ص 39.

[11] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990م، ص208.

[12] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992م، ص106.

[13] المرجع نفسه، ص92.

[14] جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائيات السردية والخطابية، تر، جمال حضري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط2007، ص 12.

[15] المرجع نفسه، ص12.

[16] أحمد طالب، الفاعل في المنظور السيميائي: دراسة في القصة القصيرة الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002م، ص23.

[17] المرجع نفسه، ص23.

[18] عبد الله توام، إجراءات المقاربة السيميائية للخطاب السردي، مجلة التعليمية، المجلد الرابع، العدد 11، جوان 2017م، ص 334-335.

[19] مُحَمَّد ناصر العجيمي، في الخطاب السردي، نظرية غريماس، الدار العربية للكتاب، تونس، دط، 1993م، ص38.

[20] مُحَمَّد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط3، 1992م، ص151.

[21] بوعزة، ص65.

[22] بنكراد، ص24.

[23] J .Courtés ; Introduction à la sémiotique narrative et discurcive ; Hachette ; université ; 1976 ; p 62.

[24] رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر والتوزيع، دون طبعة، 2002م، ص 31-32.

[25] بنكراد، ص54.

[26] المرجع نفسه، ص55.

[27] كورتيس، ص112.

[28] بنكراد، ص55.

[29] المرجع نفسه، ص55.

[30] نادية بوشفرة، معالم سيميائية في مضمون الخطاب السردي، دار الأمل، الجزائر، دط، 2011م، ص42.

[31] بنكراد، ص56.

[32] عبد المجيد العابد، مباحث في السيميائيات، دار النشر القرويين، 2009م، ص39.

[33]أبو إسحاق الحويني الأثري، صحيح القصص النبوي، مكتبة الصحابة، جدة – الشرفية، ط1، 1411هـ، ص8.

[34]بنكراد، ص95.

[35]بنكراد، ص100.

[36]بوشفرة، ص45.

[37]أحمد طالب، المنهج السيميائي –من النظرية على التطبيق–، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص25.

[38]بوشفرة، ص46.

[39]رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص– عربي– إنجليزي– فرنسي–، دار الحكمة، دط، 2000م، ص155.

[40] Greimas et courtes , Dictionnaire raisonne , 1979,p 320.

[41]أبو إسحاق الحويني، القصص النبوي، ص8.

[42]بوشفرة، ص 89.

[43]سورة الزمر، الآية 53.